

عظة (ثانية) في أحد القديسة مريم المصرية

أنتوني (بلوم) ميتروبوليت سروج

نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

باسم الأب والابن والروح القدس

في الأحد الخامس من الصوم الكبير، نتذكر القديسة مريم المصرية، وهي تستطيع أن تعلمنا الكثير مما نحتاج إلى معرفته. لقد كانت خاطئة ومعروفة، فتنةً وفضيحةً للرجال. كيف صارت خاطئة؟ لا نعلم؛ هل كان فيها شر، هل تم إغواؤها أو اغتصابها، وكيف أصبحت زانية، لن نعرف أبداً. ما نعرفه على وجه اليقين هو أنها جاءت ذات يوم إلى كنيسة والدة الإله – صورة الكليّة الكاملة – وشعرت فجأة بأنها لا تستطيع دخولها. لا نحتاج إلى أن نتخيل قوة خارقة تمنعها من عبور العتبة؛ ربما كانت القوة – بالتأكيد – داخلها. شعرت أن العالم مقدس للغاية، وأن شخص والدة الإله مقدس جداً لدرجة أنها لا تجرؤ على السير في حضرتها والوقوف في حرم الكنيسة.

كان هذا كافياً لها لتدرك أن كل الماضي كان ظلاماً، وأن هناك طريقة واحدة للخروج منه: التخلص من كل شر وبدء حياة جديدة. هي لم تخرج طلباً للنصيحة، ولم تذهب للاعتراف؛ خرجت من المدينة إلى الصحراء، إلى الصحراء الحارقة حيث لم يكن هناك سوى الرمال والحرارة والجوع والوحدة اليائسة. يمكنها أن تعلمنا شيئاً عظيماً جداً. كما كرر القديس سيرا فيم ساروف أكثر من مرة للذين جاءوا لرؤيته، فإن الفرق بين الخاطئ الضال والخاطئ الذي يجد طريقه إلى الخلاص لا يكمن في شيء سوى التصميم. نعمة الله موجودة دائماً؛ لكن استجابتنا ليست كذلك. أمّا مريم فاستجابت؛ من خلال الرعب الناتج عن تصورها الجديد لذاتها، استجابت لقداسة والدة الإله، ونعمتها، وكمالها وطهارتها، ولم يكن هناك شيء، أي شيء يُستكثّر على تغيير حياتها.

سنة بعد سنة، في الصوم والصلاة، في الحر الحارق، في الوحدة اليائسة في الصحراء، حاربت كل الشر الذي تراكم في روحها؛ لأنه لا يكفي أن ندرك الشر، ولا يكفي حتى أن نرفضه بفعل الإرادة، فهو موجود في ذاكرتنا، في رغباتنا، في ضعفنا، في الفساد الذي يجلبه الشر. كان عليهما أن تقاتل من أجل حياتها كلها، وقد انتصرت في نهاية تلك الحياة؛ في الواقع، لقد خاضت الجهاد الحسن، وتطهرت من الدنس، واستطاعت أن تدخل ملكوت الله: لا هيكلًا، ولا مكانًا، بل الأبدية.

بإمكان القديسة مريم أن تعلمنا الكثير. يمكنها أن تعلمنا أنه بمجرد أن ندرك يوماً ما أن العالم الذي نسير فيه بحرية، أي الكنيسة، أو ببساطة العالم الذي خلقه الله والذي ظل طاهراً من الشر على الرغم

من خضوعه واستعباده للشر بسببنا، هو مقدس جداً بحيث نحن وحدنا لا مكان لنا فيه، فقد نتوب استجابة لهذا الإحساس، أي نبتعد عن أنفسنا في رهبة، ونقلب على ذواتنا بتصميم صارم. من ثم يمكننا أن نحذو حذوها.

إن مثالها هذا يُقدّم لنا كلحظة تتويج لربيع الحياة هذا الذي هو الصوم. قبل أسبوع سمعنا تعليم القديس يوحنا السلمي ودعوته، وهو الذي أسس لنا سلم الكمال الكامل للتغلب على الشر والوصول إلى الحق. واليوم نرى شخصاً قد وصل من أعماق الشر إلى قمة القداسة، وكما يقول قانون القديس أندراوس الكريتي: "تيقن أن الله الذي يستطيع أن يشفي الأبرص يستطيع أن يشفي البرص الذي عندك".

إذاً، فلنر في القديسة مريم تشجيعاً جديداً، ورجاءاً جديداً، بل فرحاً جديداً أيضاً، ولكن أيضاً تحدياً ودعوة، لأنه عبثاً نرّم مديح القديسين إن لم نتعلم منهم ونقتدي بهم. آمين.

Source: Metropolitan Anthony Bloom. Sunday of Saint Mary of Egypt. 1 April 1990.
<https://pemptousia.com/2020/04/sunday-of-saint-mary-of-egypt/>